٢٦ ــ صوم

من المحقق أن القضاء لم يرد حين قضى بالسجن على توفيق دياب أن يقضى عليه بالمرض ولا بالتعرض للمرض . ومن المحقق أنه لم يرد أن يقضى عليه بالعذاب ولا بالتعرض للعذاب . ومن المحقق أنه أراد إرساله إلى السجن ليستقر فيه أشهرا ثم يخرج منه فيستأنف الحياة مع الأحياء ، لا ليبقى فيه ريثما تسوء معاملته فتشرف به على المرض ، ثم تسلمه إلى اليأس ، ثم تضطره إلى الصوم ، ثم تنتهى به إلى حيث يعلم الله ، وإلى حيث يعلم الناس من أمر المريض المضنى إذا ألح فى الصوم وامتنع عن الطعام والشراب .

من المحقق أن القضاء لم يرد شيئا من هذا ، وما ينبغى أن يريد شيئا من هذا ، ومن المحقق أن مصلحة السجون لم تنشأ لتعرض الأصحاء للمرض ، ولا لتدفع بالمرضى إلى السقم المهلك والآلام التى تفتك بالحياة ، ومع ذلك فقد أسلم إلى مصلحة السجون رجل مريض ، ليس مرضه غامضا ولا مجهولا ، وليس مرضه من هذه الأمراض التى يكون فيها الشك ، ويختلف فى تصويرها وتقديرها الأطباء . وإنما هو مرض معروف قد سجَّل الأطباء آراءهم فيه ، ورفعت هذه الآراء إلى مصلحة السجون ، ولم يسجلها أطباء مغمورون ، وإنما سجلها جماعة معروفون ، منهم أستاذ فى المعهد الرسمى للطب فى مصر ، فيجب أن تسمع كلمته وأن تقدر . ومع هذا كله يقال إن مصلحة السجون لم تحفل بمرض المريض ، ولا بآراء الأطباء حتى اضطرت إلى ذلك اضطرارا حين رأت من حال السجين نفسه ما يلزمها أن تختصه ببعض العناية .

ويقال إن مصلحة السجون لم ترد أن تمضى فى هذه العناية بسجينها المريض ، لأنها رأت حاله تحسن بعض الشىء ، ورأته يأخذ بحظ من الشفاء ، فردته إلى حال المسجونين العاديين ، وهى تعلم من قرار الأطباء أنه عائد من غير شك إلى مرضه الحاد المضنى بعد أيام قليلة .

---

(١) ٢٦ ــ ٥ ــ ١٩٣٣ .

فهل تريد مصلحة السجون أن نفهم أنها تجد لذة فى أن يألم المسجونون وتجد من تكميل العقاب أن تدور بهم بين الصحة والمرض ، وبين الراحة والألم ، تتركهم حتى يصيبهم المرض المحتوم ، أو يشتد عليهم المرض الذى لا يفارقهم ، وهنالك تعنى بهم شيئا ، وتتفضل عليهم بقليل من العلاج حتى إذا حسنت حالهم قليلا ، ردتهم إلى ما يسيئها ويفسدها ، وتنقلت بهم على هذا النحو ، تعالجهم ليمرضوا ، وتمرضهم ليصحوا ، تخرجهم من النار لتعيدهم إليها ، وتدخلهم فيها لتخرجهم منها .

ما لهذا أنشئت مصلحة السجون ، ولا لهذا أنشئت السجون ، وما بهذا يمكن أن ترضى حكومة تقدر لنفسها شيئا من الكرامة وتطمع لنفسها فى شىء من الاحترام ، أم هل تريد مصلحة السجون أن نفهم أنها تعامل ضيوفها معاملة آلية صرفة ، لا فهم فيها ولا فقه ، ولا تدبر فيها لشىء ، وإنما هو تطبيق ميكانيكى للنظام ، فلان حسن الحال بعض الشىء ، فيجب أن يصلى نار المعاملة العادية حتى إذا ساءت حاله كانت العناية به ، فهى لا تعنى بالسجين إلا حين ترى نفسها مضطرة إلى هذه العناية ! ما هكذا ينبغى أن تشرف الإدارات على مصالح الناس ، وما هكذا ينبغى أن يفهم النظام وتنفذ أصوله وقواعده .

رجل قال الطب إنه لا يستطيع أن يبرأ من الألم ، أو لا يستطيع أن يخف عنه الألم إلا إذا عاش عيشة خاصة رسمها له الأطباء وبينوا حدودها بيانا مفصلا واضحا . فمن الحق على مصلحة السجون أن تذعن لرأى الأطباء وأن تنفذ ما قرروا فى غير تردد ولا تلكؤ ، إلا أن تكون مصلحة السجون حريصة على أن يلقى الناس عندها ألوان العذاب ويتعرضوا عندها لخطر الموت !

هذا كله ولم نذكر أن توفيق دياب لم يقتل ولم يقطع طريقا ولم يسرق ولم ينقب على قوم آمنين ، ولم يقترف إثما من هذه الآثام المنكرة التى يعاقب عليها القانون وحده ، وإنما تعاقب عليها الأخلاق ، ويعاقب عليها العرف ، وتبقى آثارها السيئة ملازمة لصاحبها ما عاش ، وملازمة لاسمه بعد أن يموت ، . لم يقترف توفيق دياب شيئا من هذه الآثام ، وإنما أتى شيئا يختلف تقديره باختلاف الظروف ، وباختلاف البيئات ، وينكره القانون الآن فى مصر ، ولعله لا ينكره غدا ، ولعله لم

يكن ينكره على هذا النحو من قبل ، ولعله لا ينكره بحال من الأحوال فى كثير من البلاد الأخرى ، ولعله أن يكون مصدر شرف لصاحبه فى بعض البيئات وفى بعض الظروف وفى بعض العهود . فليس من الحق ولا من العدل ولا من الرعاية لحرية الرأى أن يعامل هذا الرجل معاملة المجرمين الذين يفسدون فى الأرض ، والذين يلزمهم إثم الجريمة أحياء وأمواتا .

لم نذكر هذا لأننا قد ذكرناه وألححنا فيه ، وذكره غيرنا وألح فيه فلم يسمع له أحد ولم يحفل به أحد ، حتى استيئسنا من أن الحكومة ستقبله أو تؤمن له ، فلم نطمع إلا فى أن يعامل الرجل معاملة سجين مريض قد يخف عنه الألم إذا ظفر من العناية بما ينبغى له ، ولكن مرضه لا يزول . وآية ذلك أنه كان حرا طلقا قادرا على أن يحيط نفسه بألوان العناية والعلاج كلها ، معتمدا فى هذه العناية على خير الأطباء ، فظل ست سنين لا يفارقه المرض ، ولكنه يخف عنه حينا ، ويثقل عليه أحيانا . أفتأبى مصلحة السجون على المريض أن تعامله معاملة المرضى ؟

يقولون إن حال توفيق دياب قد حسنت بعض الشىء فيجب أن يسوى بينه وبين غيره من السجناء تنفيذا للنظام ، ولكن التسوية بينه وبين غيره من السجناء شىء لا سبيل إليه ، لأنه لم يشف من مرضه ، فهو مريض ، والسجناء أصحاء ، وإنما تستطيع مصلحة السجون أن تسوى بينه وبين غيره يوم تسوى الطبيعة بينه وبينهم ، فترد عليه صحته كاملة ، ويسجل أطباؤه أن هذا المرض قد فارقه وانجلى عنه ، وأنه قد شفى الشفاء التام . فأما قبل هذا فإن مصلحة السجون تأثم حين تضطر المريض السقيم إلى ما يشق احتماله على الأصحاء .

زعموا أن بعض النواب تقدم إلى مجلسه باقتراح يصلح نظام السجون ، ويفرق بين جرائم الرأى والنشر ، وبين غيرها من جرائم العدوان عل الحقوق والأنفس والأموال ، وزعموا أن قد كان فى النواب عطف على هذا الاقتراح وميل إلى قبوله والعمل به ، ولكن هذا الاقتراح الذى قدم فى نشاط إلى المجلس لم يكد يستقر فيه حتى أصابه جمود وخمود ، وشىء يشبه الموت ، فلم يذكره أحد ، ولم يفكر فيه أحد ، وأكبر الظن أننا لم نخطىء حين قدرنا منذ قدم هذا الاقتراح أن المجلس لن يحفل به إلا ريثما يهمله ، وما هى إلا أن يقيم بعض النواب أنفسهم أوضح

الأدلة على أنهم لم يكونوا جادين حين تلقوا هذا الاقتراح !

نعم وقف بعض النواب منذ أيام يستعدى على الصحف ، ويلومها لأنها تطالب بأن يعامل المسجونون فى الرأى كما يعامل أمثالهم فى البلاد المتحضرة ، ويرى أن هذا من الصحف تشجيع للإثم ، وتحريض على التورط فيه . وقد فهمنا عن النائب ما أراد وعلمنا أن القوم لا يريدون بخصومهم خيرا ولا إنصافا ، ولا يتحرجون فى أن يصموا أنفسهم فى ذلك بتجنب الحضارة والإغراق فيما تتنزه عنه البلاد الراقية حقا .

ليس لنا إذن أمل فى النواب ، والنواب مشغولون عن السجون ومن فى السجون بما هم فيه من شؤون ، والنواب مطمئنون فقد أذن الله لأوليائهم وأنصارهم من الكتّاب ألا يقدّموا للقضاء ، ولا أن يدخلوا السجون ، ولا أن يتعرضوا لمكروه ما دام الأمر إليهم ، وما دام الحكم إلى وزارتهم القائمة والنواب حراص على أن يذوق خصومهم من ألوان الشدة والضيق ، وصنوف العذاب والنكال ، لعل ذلك أن يصدهم عن المعارضة ويصرفهم عن النقد ، فكل شىء يدعو النواب إلى أن يهملوا هذا الاقتراح وينسوه حتى تنقضى هذه الدورة !

وزعموا أن الصحف كرهت أن يعامل الصحفيون كما يعامل توفيق دياب ، فأنكرت واحتجت ، واجتمعت وكررت الاجتماع ، ولجّت فى الإنكار والاحتجاج ، وانتهى بها كل هذا إلى فوز عظيم ، ونجح رائع ، فأنشأت لنفسها ناديا تجتمع فيه مع الضحى ، وتجتمع فيه مع الأصيل ، وتجتمع فيه تحت جنح الليل ، وهى فى أثناء هذا الاجتماع المتكرر لا تلعب ولا تلهو ، ولا تهمل ولا تقصر ، ولا تتحدث إلا عن سجينها المريض ، وعما يلقى وتلقى معه من إهانة وعما يحتمل وتحتمل معه من ألم ومضض ، ولكنها لا تتحدث إلا إلى نفسها ، ولا تسمع إلا نفسها ، ولا تسعى إلا فى ناديها . ومهما يكن من شىء فلم ترفع عنها إهانة ، ولم ترد إليها كرامة ، ولم ترع لها حرمة ، ولم يزل عنها ضيم . وهى مع ذلك راضية مطمئنة ، لأنها تجتمع وتسعى ، وتتحدث . وهل تملك إلا الاجتماع والسعى والحديث ؟!

وكذلك تعرض مصلحة السجون عن الواجب ، وكذلك يعرض النواب عن

الواجب ، وكذلك تعرض الصحافة عن الواجب ، أما توفيق دياب فيثقل عليه المرض حتى يضنيه ، فإذا ردت إليه العناية اليسيرة بعض صحته ، أعيد إلى شر ما كان فيه ، فينظر فإذا هو بين إهانة لازمة لا ترفع عنه ، إهانة السجن فى الرأى يلقى جزاء المجرمين العاديين ، وبين مرض لازم لا تخف آلامه إلا ريثما تعود ثقيلة منهكة ، وبين يأس يتراءى له من بعيد ، ثم يدنو منه شيئا فشيئا ، ويقرب منه قليلا قليلا حتى يتصل به ويملأ عليه عزلته ووحشته ووحدته إذا أشرق النهار ، وهل يشرق النهار إلا فى شحوب ؟ وإذا أظلم الليل ، وهل ظلمة الليل عليه إلا اتصال لظلمة النهار ؟ يتلفت فلا يرى إلا مرضا ويأسا ، ويفكر فلا يجد إلا مرضا ويأسا ، وإذن فماله لا يخلص من المرض ، وما له لا يخلص من اليأس ، وما له لا يضع حدا لهذه الآلام التى يأبى الناس أو يعجزون أن يضعوا لها حدا . ما له لا يقصر الأمد بينه وبين الراحة الكبرى والهدوء الشامل الذى لا يعرف مرضا ولا صحة ، والذى لا يعرف يأسا ولا أملا ، والذى لا يحتاج صاحبه إلى رحمة الناس ولا إلى عدل الناس ، ولا إلى مروءة الناس ، وإنما يحتاج إلى رحمة الله وحده ، وإلى عدل الله وحده ، وإلى رأفة الله وحده .

ما له لا يقطع أسباب الحياة هذه التى يجد الناس فيها ظلما وجورا ، والتى يجد الناس فيها قسوة وغلظة ، والتى يجد الناس فيها نزولا حتى عن الكرامة ، وتفريطا حتى فى الحرمات ؟ ما له لا يدع الطعام والشراب ، ولا يقبل على الصوم المتصل لعله أن يخلص من كل هذا المكروه .

وكذلك تحدث الناس أن توفيق دياب قد بدأ صومه هذا الخطر منذ أمس ، وتساءل الناس عن هذا النبأ ، فؤكد لهم ، وسأل الناس الحكومة عن هذا النبأ فآثرت صمتا هائلا مخيفا ! وتسامع النواب بهذا النبأ فلم يقولوا عنه شيئا ! وتسامعت الصحف بهذا النبأ فأذاعته وأشاعته ، وتداعت للاجتماع بعد أن يكون توفيق دياب قد صام ثلاثة أيام ، ووقع هذا النبأ فى بيت توفيق فجزعت قلوب ، وذهلت نفوس ، وانهمرت دموع . وأقبل اليأس على هذا البيت الذى كان يملأه الأمل منذ أسابيع فأقام فيه ضيفا ثقيلا !

نعم وحل اليأس قلوبا ما كان ينبغى أن يصل إليها ، وغشى اليأس بالحزن

وجوها ما كان ينبغى أن يظهر فيها إلا البشر والابتسام للحياة .

اللهم اشهد أن هذا السجين البائس وأبناءه الصغار وأصدقاءه لا ينكرون القضاء ، ولا يمارون فيه ، ولا يترددون فى الإذعان له عن رضى وطمأنينة ، ولكنهم يريدون العدل الذى لا شك فيه ولا مراء ، العدل الذى يأبى أن يعامل المريض معاملة الصحيح ، وأن يعامل السجين فى الرأى معاملة السجين فى قطع الطريق .